الفصل السابع

نور الدين محمود

التفاعل المثمر ... أمل الأمة

لقد سبق التوضيح بأن عدم تفاعل الأفراد وفقا لما أوتوا من إمكانيات يؤدى إلى تخلف الأمة. وعليه، فالمطلوب أن يتجاوب قراء هذا الكتاب، كل على القدر المتاح له، مع القيم المذكورة على مدى الفصول المختلفة للوصول بالأمة إلى التكامل والنهوض. وكنا قد أشرنا في الفصل السابق إلى المتعة التي يشعر بها المتقرب إلى الله تعالى من خلال تصدقه. فمن تجاوب وقدم ما بوسعه، جزاه الله خيرا. ومن لم تتح له بعد زيادة قدره من التفاعل الإيجابي لمصلحة الأمة، فعليه أن يراجع نفسه ونيته أثناء قراءته لهذا الكتاب.

الجهاد والجود

شاء الله سبحانه وتعالى أن يكتسب صلاح الدين الأيوبي صفات الفروسية والصلابة والإصرار على النجاح من جانب، وأعمال الجهاد في سبيل الله من جانب آخر، من عمه أسد الدين شيركوه. ونظرا لقربه أيضا من جمال الدين الأصفهاني فقد أخذ صلاح الدين عن ذلك الرجل جوده وحبه الكبير لعمل الخير.

سادس الخلفاء الراشدين

عندما يتطرق الحديث عن شخصية نور الدين محمود تتولد مشاعر الاحترام والتقدير والإعجاب نظرا لارتباط صاحبها بالله تبارك وتعالى ارتباطا شديدا، ولما قدمه للأمة الإسلامية من انجازات وتضحيات. هذا إلى جانب أن نور الدين محمودا كان أحد الأشخاص الذين تركوا أثرهم الكبير في تشكيل شخصية صلاح الدين الأيوبي. وكانت شخصية نور الدين محمود أقرب ما تكون إلى الشخصية الربانية وإلى شخصيات الصحابة أو السلف الصالح. يقول ابن الأثير عن نور الدين محمود " ما وجد حاكم عادل بعد عمر بن عبد العزيز مثل نور الدين محمود!". ويكفى أن ذلك المؤرخ بما له من صيت ذائع أطلق عليه لقب سادس الخلفاء الراشدين.

وكان القريبون من عماد الدين زنكي يعرفون مدى ارتباط وإعجاب أسد الدين شيركوه به نظرا لجهاده في سبيل الله عز وجل، و رغبته في رفعة شأن الإسلام، وحرصه على تحقيق الانتصارات الواحد تلو الآخر. وبعد اغتيال عماد الدين، كان أسد الدين شيركوه ، رغم تأثره البالغ بوفاة قائده، هو الذي خلع خاتم الإمارة والسلطة من يد المتوفى ووضعه في يد نور الدين محمود الذي كان واقفا أمام جثمان أبيه. وعند تردد نور الدين في قبول التكليف، قال له أسد الدين شيركوه :"إن الموقف ليس موقف تردد وإنما هو موقف عمل للإسلام يا مولاي. أجدك كفئا لهذا الموضع وقد وضعك به رب العالمين بعد وفاة والدك عماد الدين زنكي".وقد تولى نور الدين محمود القيادة سنة ٥٤١ ميلادية، وعندها عين أميرا على حلب، في حين كانت الموصل تحت إمرة سيف الدين غازي.

عباد الرحمن وقيام الليل

رغم ما تمتع به نور الدين محمود من صفات قيادية تمثلت في قدراته العسكرية الفذة ومهاراته السياسية المحنكة، إلا أن أهم ما يذكر به هو قربه من الله سبحانه وتعالى. وعادة ما ينظر في أيامنا هذه إلى كلمة "إدمان" بمفهوم سلبي نظرا لعلاقتها بإدمان تعاطي المخدرات أو شرب الخمر. ولكن ابن الأثير يعبر عن تقرب نور الدين محمود من رب العزة بقوله :"إن نور الدين محمود كان مدمنا لقيام الليل!". ومقصد ابن الأثير من استخدامه لهذا اللفظ ينبع من رغبته في توصيل معنى عدم اكتفاء نور الدين بعدد محدد من الركعات كان يقومها ليلا، وإنما إقباله على الزيادة في عدد الركعات مع مرور الوقت. وبالإضافة إلى قيامه الليل، كان نور الدين محمود قائدا منتصرا على الصليبيين، وعاملا على رفعة شأن الإسلام. وبالتالي، هذه هي الصفات التي استحق بسببها تولى القيادة والترقي فيها بعزة وكفاءة. فإن أردنا اختيار القائد المناسب لأي موقع من المواقع، كبيرا كان أو محدودا، فالأحرى أن نتوخى في ذلك الشخص خشيته من الله جل علاه والعمل على إرضائه من خلال الالتزام بأداء المناسك الدينية من صلاة وزكاة وغيرهما، والقيام بأعمال الخير من تصدق ورعاية مصالح المسلمين. وفى الواقع، فإن القيمة الحقيقية للإنسان تتحدد بقدر علاقته بالله سبحانه وتعالى، وليس بقدر منصبه، فالمحك هنا أن يكون فردا ربانيا أولا. وعلى ذلك، فإن سيرة نور الدين محمود تكشف لنا الأسباب الحقيقية التي سخرها الله جل شأنه ليكتب له الانتصارات على أعدائه.

في حالة الحرب، تقوم كل دولة بتكليف عملائها بجمع الأخبار عن الدولة المعادية، بما في ذلك من معلومات عن الحالة النفسية للمجتمع المعادى. ولذلك فقد قامت إدارة الاستخبارات العسكرية في الدولة النورية بالحصول على أخبار وصلت إلى صلاح الدين الأيوبي لكونه مديرا لأمن دمشق في ذلك الوقت. وكانت تلك الأخبار تفيد بأن الناس في بيت المقدس كانوا يقولون :" إن هذا القسيم بن القسيم

قد أذاقنا المر وأهلكنا وأغار على بنياس، وحارم، وسهو لنا في بيروت وطرابلس، ويحاول تحرير بلاد الإسلام. إن هذا القسيم بن القسيم بينه وبين الله سرا ينتصر به". وفى الواقع ما انتصر نور الدين بعدة ولا عتاد، إنما انتصر بركعات يسجدها لرب العالمين ليلا وبكفيه يرفعهما إلى السماء متضرعا بالدعاء، هذا هو الذي جعله ينتصر!

فليتعرف إذن كل فرد و كل مسئول في أي موقع على قيمته الحقيقية من خلال تقييم علاقته بالله تبارك وتعالى. ولا تظن أنه بإمكان الواحد منا أن يصادف توفيقا دون اللجوء إلى المولى العلى القدير. فيكفى المؤمن أن يركع ركعتين قضاء حاجة حتى تتحقق حاجته نتيجة توجهه لبارئه. وبهذا الخصوص، نفرض أن أحدا منا جاءه رئيسه في العمل يزوره في الثالثة صباحا، فهل يتركه يقرع على الباب أم أنه يهرول في استقباله باديا كل مظاهر الترحيب والاحترام؟ فما بالك إذن بالله رب العالمين، الإله الذي خلق ورزق وأعطى وينتظر منك أن تعبده، ألا يستحق من المسلم أن يقوم له في ذلك الوقت. وفى حديث البخاري عن أبى هريرة ﷺ وأرضاه، عن رسول الله ﷺ: "يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول "من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟". هل من المعقول إذن أن يسأل رب العزة هذه الأسئلة والفرد منا يظل نائما أو يضيع وقته عبثا؟ إذن، فالإنسان الذي يصلح فعلا للقيادة هو الذي يشعر برحمة الله عليه ويسعى في طلبها ولا يتخلى عنها أبدا. وكذلك، فالقرب من الله هو المعيار الحقيقي الذي ينبغي أن يتخذ عند الحكم على مدى صلاحية شخص ما للقيادة. ولذا، فإن الإنسان الفطن هو الذي لا يدع الليل يفوته دون أن يتضرع إلى الله عز وجل سائلا إياه التوبة والمغفرة. وتظل الرحمات تتنزل بصفة خاصة حتى تطلع الشمس.

بدون مبالغة، يعد درس قيام الليل الأهم على الإطلاق في التركيبة النفسية والإيمانية لشخصية صلاح الدين الأيوبي. ولكن، كيف أصبح قيام الليل جزءا من

حياة صلاح الدين؟ التاريخ يروى أن صلاح الدين انتقل إلى دمشق وعاش في قصر نور الدين محمود الذي كان له بمثابة الأب الروحي له. ولذا كان من الطبيعي أن يشعر صلاح الدين بقيمة قيام الليل عندما يرى نور الدين حريص عليه أشد الحرص. وهكذا واظب صلاح الدين على قيام الليل حتى أن ابن الأثير يقول:" فكان لصلاح الدين ركعات من الليل يسجدها في كل ليلة، فإن فاته الليل قام بعد شروق الشمس مصليا ما كان عليه من ليل". وليس هذا بغريب على صلاح الدين.

يتضح مما سبق أن النجاح الذي صادفه صلاح الدين في حياته لم يكن عبارة عن أسطورة تناولتها الألسن على مر الزمان ، وهذا واقع يبعث على الفخر والعزة ما كان له أن يتحقق لولا صفات صلاح الدين التي اكتسبها من المحيطين به والمؤثرين فيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد].

بعد فتح إمارة الرها على يد عماد الدين زنكي، نشأت في أوروبا حركة كبيرة بهدف القضاء عليه وأخذ الصليبيون يعدون حملة جديدة لتحقيق مأربهم. ولكن كانت يد الغدر أسبق من يد العدو إلى اغتيال عماد الدين زنكي. وبعد وفاة ذلك القائد المجاهد في سبيل ربه، تحركت الحملة إلى الشرق ووصلت أنباؤها إلى نور الدين محمود الذي كان في وضع أصعب من وضع والده حيث لم يكن قد ثبت أقدامه بعد في البلاد وكانت الأخبار تشير إلى أن أوروبا أعدت جيوشا قوامها ثمانمائة ألف مقاتل. بل إن من دواعي الحسرة أن يتخاذل جميع الأمراء المسلمين ويمتنعوا عن مؤازرته في مواجهة عدو الإسلام. ولكن سبق وأن قدمنا لأسباب الانتصار التي تتلخص في الآيات التالية إذ يقول الله عز وجل:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٥١].

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٢٦].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩]

والغريب أن بعض المحيطين بنور الدين محمود أشفقوا عليه من مواجهة الحملة الصليبية الثانية وأثنوه عن التصدي للجيش الجرار الذي أعده الصليبيون للقدوم به، معتقدين أنه لا يستطيع أي قائد، حتى عماد الدين زنكي نفسه لو كان حيا، أن يصمد أمامه. ولكن نور الدين كان على يقين راسخ بآيات القرآن الكريم السابقة التي تخبر بنصر الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بغض النظر عن الشواهد الدنيوية من عدد وعدة حيث أن الله على كل شيء قدير ولعباده نصير. وعندما علم نور الدين بأن السفن الصليبية قد رست على شواطئ عكا، وقف على أسوار دمشق يطلب من معين الدين أنر ومجير الدين وأمراء دمشق في ذلك الوقت، بعدم السماح لقوات الحملة الصليبية الثانية بالمرور بأراضيهم. ولكن للأسف، رفض معين الدين طلب نور الدين متعللا بالمعاهدة التي كان قد أبرمها مع الصليبيين والتي تتيح لهم المرور بأراضيه وقتما شاءوا. ورغم ذلك، أخذ نور الدين في تجميع قواته التي كانت تتألف من ثمانية آلاف مقاتل. ترى ماذا كانت نتيجة مواجهة هؤلاء المؤمنين للجيوش المؤلفة من ثمانمائة ألف صليبي؟ ببساطة، النتيجة كانت تصديقا للآيات القرآنية السابقة حيث يروى ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية" ما حدث للسفن الصليبية وكيف انتهت المواجهة بين القوتين فيقول: "شاهدت بعيني أسطولا مهولا. شاهدنا سفنا لا يحصى لها عدد حتى إننا لم نستطع أن نرى مياه البحر التي غطتها السفن. كل من في الشام يتحدث عن هذا الجيش المعجزة وعما سيحدثه في أرض الشام وديارة، ودنوه من البر. زاغت الأبصار و بلغت قلوبنا الحناجر . وفجأة، تلبدت السماء بالغيوم وأمطرت وأرعدت وصارت السفن تتلاطم كالأمواج ، وما نشاهده ليس أمواجا بل حطام السفن يضرب بعضه البعض. وبعد أيام من تغيير البحر، لم نجد من الناجين من جيش كان مقداره ثمانمائة ألف مقاتل إلا ألفين فقط. وصدق الله العظيم إذ يقول في محكم التنزيل:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدّثر:٣١].

لقد أيد الله تبارك وتعالى نور الدين ومن معه وآزرهم بجنود ونصر من عنده. والسؤال المطروح "ما دخل نور الدين في ذلك التأييد الإلهي؟ يروى التاريخ أن نور الدين، عندما وصلته الأخبار بوصول السفن المعادية ورسوها، سجد في خيمته سجدة تذكر عند رب العالمين يوم القيامة، سجدة بكى فيها قائلا: "اللهم إنا عبادك، خرجنا من أجلك. لم نخرج شرا ولا بطرا. خرجنا من أجل نصرة دينك. اللهم إنا جمعنا كل ما نستطيع ولم يعد في أيدينا حيلة، ولم يبق غير الإخلاد إليك والركون إليك. اللهم انصر عبادك، ليس لكون محمود بينهم فأنا الكلب فيما بينهم". إذن، فإن تلك الكلمات الصادقة والخالصة لوجه الله تعالى هي التي جلبت رحمة المولى العلى القدير ونصره لمن لجأ إليه خالصا مخلصا. لقد أرجع نور الدين الأمر لله وحقّر نفسه وتنكر لها أمام خالقها فاستحق المؤازرة وأنقذه الله من الذل لأعدائه. "اللهم إني من بينهم الكلب. اللهم انصرهم بالضعفاء ممن يدعونك. اللهم انصرهم بمن خرج في سبيلك. اللهم إنا عبيدك وهم أعداؤك، فانصر عبيدك على أعدائك". فوالله الذي لا اله إلا هو ، إن شخصية نور الدين الربانية كانت بمثابة السلاح الإستراتيجي السري الذي استخدمه ضد أعدائه. وهو السلاح الذي نستخدمه كلما حلت بنا مصيبة أو استعصى علينا حل مشكلة من المشاكل، ألا وهو التضرع إلى الله بإخلاص ويقين بالإجابة إن شاء الله. هل هناك ما يعيب ركوع نور الدين بين يدي خالقه وبارئه؟! لا والله، فليس لمسلم أو لقائد النجاة والنجاح إلا بلجوئه إلى الله وتواضعه أشد ما يكون التواضع لله عز وجل.

أمر المسلم كله لوجه الله تعالى ... حتى الزواج

هناك مدخل آخر إلى حياة نور الدين محمود لا يقل أهمية عن المداخل السابقة، وهو عبارة عن زواجه من عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر والى دمشق. فما

هو الأساس الذي جعله يختارها؟ ولماذا أصر على الزواج منها بصفة خاصة؟ وفى الواقع، فإن الإجابة على هذه الأسئلة تستحق من كل شاب وفتاة مقبلين على الزواج أن يفتحوا عقولهم قبل قلوبهم لعلهم يصيبون خيرا عند اختيارهم لشريك الحياة الزوجية.

وتذكر الحقائق التاريخية أن نور الدين محمود كان قد طلب أكثر من المرة من معين الدين أنر أن يقف في صفه ضد الصليبيين، ولكن دون أدنى جدوى. ولما كان نور الدين يدرك أهمية الوحدة بينه وبين معين الدين حتى ينتصر الإسلام على أعدائه، فأخذ يفكر في وسيلة تقربه من معين الدين وتجعله حليفا له على الصليبيين، وهداه تفكيره إلى طلب الزواج من عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر. ومع ذلك، لم يكن التحالف مع معين الدين أنر هو الغرض الوحيد من التقدم للزواج من عصمة الدين خاتون، وإنما السمعة الطيبة التي كانت تحظى بها كان حجر الزاوية في ذلك الطلب . إذن فالاختيار الأمثل الذي يقبله المسلم لزوجته هو الصلاح وتحرى تقوى الله عز وجل، بما ينتج عن ذلك من حب ووفاء للزوج من جانب زوجته وصيانتها لنفسها وأولادها.

ولأول وهلة، بينه وبين نفسه، رفض معين الدين تزويج ابنته لنور الدين، وراح يحدثها بالطلب والفرض، فدار بينهما الحديث التالي:

"(معين الدين) : تخيلي يا ابنتي أن نور الدين محمود، عدونا اللدود، جاء يخطبك منى.

(عصمة الدين): وأنا قبلت الزواج منه.

(معين الدين) : هل ذلك معقول؟ هل قبلت بالفعل أن تكوني زوجته؟

(عصمة الدين): ولم لا أقبل اليد الوحيدة الممدودة في المنطقة لتحرير بيت المقدس؟!"

وتزوجت عصمة الدين خاتون من نور الدين محمود. وقد كان زواجهما فيه قدر كبير من الهدوء والسعادة نظرا لتشابه طباعهما واشتراكهما في حب التقرب إلى الله جل شأنه وفى وضوح أهدافهما. وقد حدث ذات مرة أن استيقظت عصمة الدين خاتون في حالة ضيق شديد، وكان نور الدين يستعد لأداء صلاة الفجر، فعرف منها انزعاجها لعدم استيقاظها من قبل لقيام الليل. ورغم ما يشغل بال نور الدين محمود كحاكم لدولة إسلامية وكقائد عسكري، إلا أنه عز عليه أن يترك زوجته في حالة الضيق، خاصة بعد أن أظهرت مدى حرصها على التقرب من الله عز وجل. فما كان منه إلا أن أمر بتصنيع داخل قلعة دمشق ما يسمى بالطبلخانة، وهى عبارة عن دائرة مسطحة كبيرة من النحاس يضرب عليها احد الجند بمطرقة فتصدر ضجيجا عظيما ساعة السحر، قبل الفجر بساعة، حتى توقظ من يريد قيا م الليل. وكان نور الدين يشعر بأهمية هذا ألأمر فأخذ يجذل العطاء لمن يطرق على الطبلخانة.

نخرج من ذلك الموقف بين الزوج وزوجته بعبرة للزوجات في مدى حرص المرأة على تواصلها مع الله جل علاه، وعظة للأزواج في مدى حرص الرجل على اللطف مع زوجته ومعاونتها على طاعة الله. وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: **"يرحم الله رجلا قام من الليل فصلى ركعات ثم أيقظ أهله، فإن أبت عليه نضح على وجهها الماء فقامت فصلت فكتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات"**(أخرجه البخاري).

هكذا كان حال بيت نور الدين محمود... بيت قيادة، بيت له قيمة، بيت حقيقي. ولذلك فنحن في أمس الحاجة إلى الاسترشاد بهذه النوعية من التراحم الأسرى الذي أثر بلا شك في أسلوب تنشئة صلاح الدين الأيوبي. وإذا أراد الواحد منا أن يكون متصلا بالله تبارك وتعالى وأن يعمل لدينه فعليه أن يصحح قلبه ونواياه، وأن يقوم الليل. ونذكر حديث الرسول ﷺ :**"ركعتين في جنح الظلام تعدلان الدنيا وما فيها"** (أخرجه الترمذي). وبالفعل، فمهما كان لدى الإنسان من

سلطة أو مال أو أبناء أو توجه لغير الله العلى القدير فإنه لا يعدل ركعتين يهب الله فيهما لعبده أو أمته فتوحات و فيوضات تسعد حياتهم في الدنيا وتطفئ عنهم نار جهنم في الآخرة حتى يكونوا من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله "رجل فاضت عيناه". كان نور الدين محمود كثير البكاء وشديد الاهتمام بأمر المسلمين.

في هذا الموضع، لا أجد ما أختم به هذا الفصل خير من توجيه الدعوة لكل مسلم ومسلمة إلى الإقبال على قيام الليل. فإذا حل المساء وجاء وقت النوم، فما أتقى وأطيب أن يتوضأ الفرد منا ويصلى ما تيسر له من ركعات، طويلة كانت أو قصيرة، يملؤها الإخلاص والصفاء للمولى عز وجل. فإذا جاء العبد منا بيدين متضرعتين وقلب سليم، كان أهلاً للرحمة والغفران والعفو والرضا من الله العلى القدير.

***